الفصل الثالث

مجيء العباسيين

لقد كان حكم الأمويين فترة ظلم طغيانى من جانب الحكام العرب على رعاياهم من غير العرب ، وبخاصة على الموالى ، وهم الذين اعتنقوا الإسلام من أبناء الأقاليم المفتوحة . ولم يكن هؤلاء يعاملون معاملة المساوين للعرب كما تقرر مبادئ الإسلام ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة القطين . ولم يكن ذلك يرجع بأية صورة إلى الاضطهاد الدينى لأن الذين وقع الظلم عليهم كانوا من معتنقى الإسلام . ولم يكن ذلك يرجع إلى تنافر عنصرى ، كالذى كان بين الساميين والآريين ، كما لم يكن مرد ذلك إلى أى شىء يصدق عليه أنه شعور وطنى من جانب الفرس أو بقية الشعوب المغلوبة ؛ ولكنه لم يكن إلا نوعاً من الإحساس الطبقى الذى يعود إلى احتقار العرب للمغلوبين ، وكراهية المغلوبين لسادتهم المتغطرسين ، وهى كراهية زاد فيها اشمئزاز الموالى من سوء الحكم ، وجهل العرب بتقاليد المدنية . وثمة أسباب أخرى أعانت على زيادة الإحساس بالكراهية ، ولا سيما من جانب الفرس ، وكان من بين هذه الأسباب شعور نصف دينى حتى بين الذين تحولوا إلى الإسلام ، لقد كان من عادة الفرس فى القديم أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك الساسانيين (وهم من سلالة أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء « كيانى » الذين كونوا مجتمعا مستقرا فى بلاد الفرس) باعتباره

« باغ » ؛ وذلك لقب لا يفهم منه معنى « إله » فهما تاما ، وإنما يفهم حلول الإله ، حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، وهكذا نسبوا للملك قوى إعجازية ، وعبدوه باعتباره مقام حضرة إلهية ، ولم ينته بالفتح الإسلامى حكم الساسانيين وحسب ، وإنما انقرضت الأسرة كذلك . وقد بقى الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة ، برغم اعتناقهم الإسلام ؛ فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل ، ولكنهم لم يرحبوا بنظرية الخلافة التى لم تجعل الخليفة أكثر من شيخ قبيلة منتخب بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان فى قبائل الصحراء ؛ وقد بدا ذلك فى نظرهم كأنه رجوع إلى البربرية البدائية . ولقد دلتنا تجربتنا الخاصة فى تناول أمور الشعوب الشرقية على أن الأفكار التى من هذا النوع تشتمل على الكثير مما يجب أن يؤخذ مأخذ الجد . وإن من كانوا من رعايا الإمبراطورية الرومانية لم يكن لهم بالطبع أى ميـــل إلى تأليه حكامهم ، إلا بعض الذين دخلوا فى حوذة الإمبراطورية حديثا من العناصر الشرقية ، على احتمال .

أما من كانوا تحت الحكم الفارسى ، فقد كانوا شديدى الرغبة فى اتباع أمير متأله . وظهر هذا فى عام ١٤١ — ١٤٢ من الهجرة فى صورة محاولة لتأليه الخليفة من جانب فرقة غالية من أصل فارسى تسمى الراوندية ، ثارت حين رفض الخليفة أن يعامل معاملة الإله ، وألقى بقادتهم فى السجن . وقد رأى أتباع هذه الفرقة وكثير من بنى وطنهم أن الخليفة لا يكون حاكما شرعيا إذا رفض أن يعامل معاملة

الإله . ومنذ القرن الثانى الهجرى إلى وقتنا الحاضر لم ينقطع سيل أدعياء النبوة الذين ادعوا أنهم آلهة، أو الزعماء الناجحين الذين ألهم أتباعهم . وظهر آخر هؤلاء فى الحركة البابية (١٨٤٤ - ١٨٥٢ م) . ولو أن عقيدة تجدد الحلول أو حضور الروح المقدسة فى إمامهم لا تبدو بنفس القوة فى البابية المعاصرة فى هذه البلاد وفى أمريكا على الأقل .

وتبدو أوضح صورة لهذه الأفكار فى الحركة الفارسية فى جوهرها والمعروفة باسم الشيعة . وتنقسم الشيعة إلى قسمين ، يرى كل منهما أن الأنبياء المتعاقبين محصورون فى ذرية على ابن عم النبى وزوج ابنته ، وهو الوحيد الذى أعطى له حق الإمامة أو الزعامة المقدس . ويختلف القسمان على معنى هذه الإمامة ؛ فيرى أحدهما أن عليا وذريته لهم سلطة إلهية ، والأئمة فقط هم الحكام الشرعيون فى الإسلام ، وهم هداته المعصومون ، ومن هذا القسم المعتدل من قسمى الشيعة المراكشيون (١) ومن حول صنعاء من جنوب بلاد العرب . ويدعى القسم الآخر أن شخص الإمام هو محل الروح الإلهية ، ويؤكدون أحيانا أن النبى محمداً ما كان له — إلا بالخداع — أن يتدخل ويعمل عمل الناطق الرسمى باسم الإمام المعصوم على ، ومن هؤلاء أصحاب المذهب الرسمى للدولة الفارسية(٢) ، وينتشرون غربا فى العراق وشرقا فى الهند . وأشهر معتقدات الشيعة أن الأئمة اثنا عشر أولهم على ، وآخرهم محمد المهدى المنتظر الذى تولى عند موت أبيه الإمام الحادى

---

(١) المراكشيون أدارسة ومالكية .

(٢) المذهب الرسمى للدولة الإيرانية هو مذهب الإمامية ؛ ولا يدعى هذه الدعوى .

عشر الحسن العسكرى عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣م) . ولقد اختفى محمد المنتظر فجأة بعد توليته فى سمراء التى كانت عاصمة العباسيين فيما بين ٢٢٢ و ٢٧٩ هـ ؛ ويقال إن مسجد سامراء قد بنى على قبو تحت الأرض هو الذى اختفى فيه محمد ، وهو الذى سيظهر منه مرة أخرى ليعود إلى حكمه حين يأتى الوقت المناسب ؛ وإن المكان الذى سيبعث منه لأحد البقاع المقدسة التى يزورها حجاج الشيعة . ويحكم الشاهات والأمراء فيما بين المؤمنين بالنيابة عن الإمام المختفى . ولقد حدث اختفاء محمد المنتظر بعد أكثر من قرن من سقوط الدولة الأموية ، ولكننا قدمنا الكلام عنه لنظهر الاتجاه العام لأفكار الشيعة التى سادت حتى فى أيام الأمويين ، ولا سيما فى شمال بلاد الفرس ، وكانت سببا قويا فى إثارة الثورة ضد الحكم الأموى الدنيوى .

ولقد علق الناس فى ذلك الوقت أهمية غريبة على التاريخ . فقد بلغ سخط الموالى غايته قرب نهاية القرن الأول الهجرى ، وقد شاع فى ذلك الوقت اعتقاد أن نهاية القرن ستشهد نهاية الظروف السائدة ويشبه ذلك ماكان الناس يتوقعون عند حلول نهاية الألف الأول الميلادى من إشراق عالم جديد . بلغ السخط حينئذ غايته ، ولا سيما فى خراسان ؛ وقد التف معظم الساخطين حول العلويين .

ويمكن لنا أن نفهم دعاوى العلويين التى كانت أقوى سبب فى سقوط الأمويين ، والتى أدت بطريق غير مباشر إلى استحضار العنصر الفارسى الذى تم نقل الثقافة الهلينية أكثر ما تم على يديه ، إذا استعنّا بهذا الجدول الذى يصور نسب العلويين .

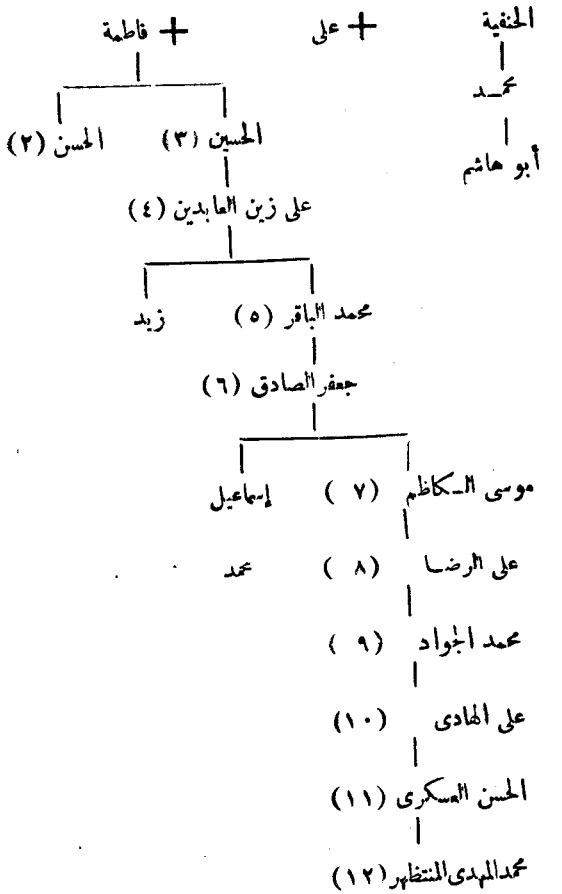

كان لعلي زوجتان ، أولاهما : الحنفية التي رزق منها محمداً ، والثانية فاطمة ابنة النبي محمد ، وقد جاء له منها ولدان : الحسن والحسين . ويعتقد المتشيعون لعلي أن عليا كان ينبغي أن يخلف النبي بما له من حق إلهي ، واعتبروا الخلفاء الثلاثة الأوائل مغتصبين للخلافة . ولقد بدأ

الموالى الساخطون منذ عهد عثمان الخليفة الثالث ينظرون إلى على باعتباره بطلا لهم ؛ أما هو فقد أيد حقهم فى الأخوة الإسلامية بماله من روح الإسلام الأول الحقيقية . ويظهر أكثر التعبيرات تطرفا عن هذه الشركة من تعاليم عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى اعتنق الإسلام وأعلن حق على الإلهى فى الخلافة منذ عام ٣٢ من الهجرة . ولا يظهر أن عليا نفسه قد أعلن رأيه بهذا الوضوح ، ولكنه كان بالتأكيد يعتبر نفسه قد لحقه ضرر بهذا الاستبعاد من الخلافة . ولقد تولى على عام ٣٥ ، فأعلن ابن سبأ أنه لم يكن خليفة بحقه الإلهى وحسب ، وإنما حلت فيه روح إلهية من النبى حتى ارتفع إلى مستوى فوق الطبيعى . ورفض على نفسه هذه النظرية ، وحين استشهد عام ٤٠ من الهجرة أعلن عبد الله بن سبأ أن روحه الشهيدة قد ارتفعت إلى السماء ، وأنها ستهبط فى الوقت المناسب مرة أخرى إلى الأرض : إن روحه فى السحاب ، وإن صوته ليسمع فى الرعد ، وإن عصاه لهى البرق .

أما الجانب الأموى تحت زعامة معاوية فلم يخضع لعلى أبدا ، ولو أنهم لم ينكروا شرعية ولايته . وبموت على أصبح معاوية الخليفة الخامس ، ولكن كان عليه أن يواجه دعاوى الحسن بن على . وتصالح الحسن ومعاوية ، ثم توفى الحسن عام ٤٩ هـ مسموما على ما يروى الرواة . أما الابن الآخر ـ الحسين ـ فقد حاول أن يصل إلى مطالبه بالقوة ، ولكنه مات ميتة محزنة عند كربلاء . وبعد موت الحسين اعترف بعض الشيعة بمحمد ، ابن على من زوجته الحنفية ، إماما رابعاً للشيعة ؛ وفى الحق إنه تبرأ من هؤلاء الأنصار ، ولكن ذلك بالنسبة

لهم كان أحد التفصيلات التى لم يلقوا إليها بالا . وكان هؤلاء الأنصار يعرفون باسم الكيسانية ، ويرجع منشأ فرقتهم إلى كيسان ، وهو عتيق لعلى ، كوّن فرقة الأخذ بثأر الحسن والحسين . وحين توفى محمد عام ٨١ من الهجرة انقسم أتباعه إلى قسمين، أحدهما: يعترف بحقيقة موته، ويرى الآخرون أنه اختفى ليظهر مرة أخرى فى الوقت المناسب . إن فكرة اختفاء الإمام موروثة من النظريات الدينية الفارسية القديمة، وتظهر فى فترات متقطعة من تاريخ الشيعة . وأهم ما فى الأمر أن الفريقين من الكيسانية ظلا طوال العصر الأموى يرفضان بإصرار الاعتراف بالخليفة الرسمى إلا باعتباره مغتصباً ، وينتظران اليوم الذى يستطيعان فيه أن يثأرا لاستشهاد على وابنيه .

ولا حاجة بنا إلى التأنى عند أسرة الحسن وسلالته ، فقد ورد ذكرهم فى ثورات العلويين بالمدينة . وبعد إحباط إحدى هذه الثورات عام ١٦٩ هـ بعد سقوط الأمويين بوقت طويل ، هرب إدريس حفيد الحسن إلى المغرب الأقصى ، وأسس هناك دولة شيعية معتدلة فى مراكش ، وهكذا يعتبر ما يأتى من تاريخ هذه الأسرة من شئون المغرب .

ويرى معظم الشيعة أن الذى خلف الحسين هو ابنه على زين العابدين . ولم يكن الحسين كما لم يكن الحسن ابنا لعلى وحسب ، وإنما كان كذلك ابنا لفاطمة بنت النبى . وللحسين بعد ذلك وراثة أخرى برهنت فى النهاية على أنها أكثر أهمية من بنوته لعلى أو فاطمة . فالشائع أنه تزوج ابنة آخر ملوك الفرس « أم الأئمة » ، وهذا

الزواج التقليدى بأميرة فارسية ـ وأدلته التاريخية مشكوك فيها ـ يعتبر فى نظر شيعة الفرس أهم عامل من عوامل الإمامة ، ولو أن هذا لا يتصل بأية صورة بدين الإسلام . وإن إعطاء أهمية كبيرة كهذه لمثل هذا الاعتبار ليوضح لنا إلى أى حد يمكن اعتبار الشيعة فى الحقيقة شيئاً غريباً غير إسلامى . وكان لعلى زين العابدين ابنان ، أحدهما: زيد ، وثانيهما: محمد الباقر . وكان زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وعلى صلة بحركته الاعتزالية ، ويعتبر غالباً من أهل النظر . حقاً إن فرقة الشيعة كما سنرى الآن وفى كثير من الأحوال قد اختلطت كثيراً بالتفكير الحر ، ويبدو منها فى كثير من الأحوال تمسك بالفلسفة الإغريقية . ويظهر أن الروح الموحية بالنسبة لها كانت عداوتها لجمهور المسلمين ، استعدادها للتحالف مع أى شىء يمكن أن يتجه منه العيب إلى مذهب الجماعة . وكان لزيد طائفة من الأتباع الذين كانت لهم قوة فى شمالى بلاد الفرس بقيت لهم حيناً من الدهر ، ولا يزال فرع هذه الطائفة باقياً فى جنوب بلاد العرب ، وهم لا يزالون يتهمون بالميل إلى النظر العقلى . ولقد اعتبر معظم الشيعة محمداً الباقر إماما خامساً وجعفراً الصادق إماما سادسا ، وكان الأخير من المتحمسين من أتباع « المعرفة الحدثية » ؛ ويقصد بهذا الفلسفة الهلينية ؛ ويعتبر بصورة عامة مؤسسا ، أو على الأقل شارحا لما يعرف باسم آراء الباطنية ، أى تفسير القرآن تفسيرا رمزيا لا يصير معنى الوحى به هو المعنى الحرفى للنص ، ولكنه معنى باطنى . ومن هذا المعنى الباطنى يمكن دائما أن نرى أثرا قويا من آثار الفلسفة الهلينية . ولا يمكن شرح المعنى الحقيقى

للقرآن إلا بالنسبة للإمام المعصوم ، أما بالنسبة لغيره ، فإن القرآن يظل مختوما . ويبدو أن جعفراً كان أول من ادعى من العلويين أنه كان محلا لحلول الألوهية ، ومعلما ملهما، إذ أن أسلافه لم يذهبوا إلى أكثر من السكوت على ادعاء أتباعهم ذلك لهم ، وكثيرا ما رفضوا هذه الادعاءات .

وتوفى أبو هاشم مسموما على ما جرى به الاعتقاد ، على يدى الخليفة سليمان عام ٩٨ من الهجرة ، وقد تنازل عن حقوقه لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس أحد الهاشميين الذين كان منهم النبي وعلى ، وهم البيت المنافس للبيت الأموى . ولقد ادعى أبو هاشم أن الإمامة كانت له ، وأنه يستطيع أن يهبها لمن يشاء ، وتلك نظرة إلى الإمامة لم يقبلها المتزمتون من الشيعة الذين يهتمون بالصفة الشرعية . ولكن لا يبدو أن أتباع أبى هاشم كانوا من الغلاة ، على الرغم من أصلهم الكيسانى . وولى عمر الثانى الخلافة عام ٩٩ من الهجرة ؛ فكان الأموى الوحيد الذى أبدى عطفا على العلويين ، وألغى لعنة علىّ على المنابر وكانت جزءا من الطقوس العلنية فى مسجد دمشق منذ أيام معاوية ؛ وكان يمثل نوعا من النزاهة الشخصية التى لم تعهد فى خليفة أموى من قبله . ولم يستطع حكمه القصير الذى بقى ثلاث سنين أن يقضى على شرور الطغيان وفساد الحكم ، وخلفه حكام آخرون أكثر شبها بالنوع القديم .

ومثل وفد من الشيعة بين يدى محمد بن على الهاشمى فيما حول الأيام التى توفى فيها عمر بن عبد العزيز ، وكان محمد هذا رجلا شهيرا بالتقوى، واستخلفه أبو هاشم بن محمد بن الحنفية رئيسا لقسم هام من أقسام

الشيعة ، وحلف الوفد على تأييده فى محاولته الوصول إلى الخلافة « لعل الله أن يحيي بك العدل ويميت بك الجور » (١) . وقد أجاب محمد بأن هذا اليوم تحقيق الآمال والمطالب لأن قرنا من الزمان قد ولى .

إن أنصار أسرة محمد بن الحنفية الذى انتقل ولاؤهم إلى محمد بن على كانوا فى غاية الأهمية ، لا لكثرة عددهم ، بل لجودة تنظيمهم . فقد أنشأوا نظاما للدعاة الذين يترحلون تحت ستار التجارة ، ويسرون بتعاليمهم فى المحادثات الخاصة ، وفى أثناء المخالطة العادية ، ثم أصبحت هذه الطريقة معمولا بها فى كل الدعايات الإسلامية التبشرية . وبموت أبى هاشم وبتركته وجد محمد بن على فى خدمته هذا العمل التبشيرى المنظم جدا ، وكان المبعوثون على ثقة تامة من أن قبول محمد لعروض الوفد الشيعى يعنى أنه أصبح البطل المدافع عن دعاواهم . أما الشيعة الحسينية الأكثر تزمنا فلم يعترفوا بمطالب محمد بن الحنفية وخلفائه ، ولكنهم عضدوا جهود محمد بن على ؛ لظنهم أنه كان يدافع عن الشيعة .

إن الدعوة لمحمد بن على يشار إليها أحيانا بأنها عباسية ؛ لأنه كان سليلا للعباس أحد أبناء عبد المطلب الثلاثة (٢) ؛ وهو من ثم أخ لأبى طالب أبى الإمام على ، ولعبد الله جد (٣) النبى محمد . ولقد ادعى الدعاة فى ذلك الوقت على أى حال أنهم يؤيدون الهاشميين ، وهو لفظ غامض ربما قصد غموضه . وقد شرح فيما بعد بأنه يدل على البيت

---

(١) الدنورى : الأخبار الطوال .

(٢) هم ليسوا ثلاثة ؛ إذ هم العباس وأبو طالب وأبو لهب وعبد الله وحمزة .

(٣) يقصد أبا النبى صلى الله عليه وسلم!

الهاشمى الذى كان البيت القرشى المنافس الذى عارض الأمويين ، وهو الذى ينتمى إليه النبى وعلى والعباس . ولكن معناه فى نظر الكثيرين من الشيعة كان قاصرا على أتباع أبى هاشم حفيد الحنفية .

وتوفى محمد بن على عام ١٢٦ هـ ، وترك أولاداً ثلاثة هم : إبراهيم وأبو العباس وأبو جعفر ، فكان أول هؤلاء يعتبر خليفة له . واشتهر فى ذلك الوقت أبو مسلم الذى كان واليا على خراسان عام ١٢٦ من الهجرة . وليس واضحا ما إذا كان أبو مسلم هذا من العرب أو من أهل العراق الوطنيين (انظر المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٩ ط . دار الرجاء) . حقا إن دعوى قد ادعيت أنه كان سليلا لغاندارز أحد ملوك فارس القدماء ؛ وكانت خراسان فى ذلك الوقت أكثر الأقاليم بغضا للأمويين ، فنشط دعاة الهاشميين فيها أكبر نشاط ، ونجحوا أكبر نجاح . وألقى أبو مسلم بنفسه فى معترك هذا العمل بكل قلبه ، وبدأ فى تكوين جيش مجهز بلغ بعد قليل مائتى ألف ؛ ووصل الخبر والنذير إلى الخليفة مروان الثانى ، ولكنه تجاهل ذلك . حقا إن بلاط دمشق لم يعر ذلك أى اهتمام حتى عام ١٣٠ من الهجرة ، وبعد ذلك رفع أبو مسلم رايته السوداء معلنا بها الثورة ضد الأمويين الذين كانوا يتخذون اللون الأبيض ؛ وكل ما فعله الخليفة حينئذ أنه قبض على إبراهيم بن محمد بن على وقتله ، وهرب الابنان الآخران إلى الكوفة ، حيث آواهما الشيعة وأخفوهما . وإن الابن الثانى : أبا العباس الذى يعرف فى التاريخ باسم السفاح قد اعترف به قائداً للهاشميين .

وكان نصر أبى مسلم سريعا وتاما ؛ وسقطت الأسرة الأموية

١٣٢ هـ ، وقضى قضاء جزئيا على أفرادها ، وأصبح السفاح أول خلفاء العباسيين الذين أخذوا هذه التسمية من جدهم العباس بن عبد المطلب .

وحالما جلس الخليفة أبو العباس على العرش جعل همه الأول أن يوطد دعائم الدولة بالقضاء على كل من يمكن أن يكون خصما لها . وكانت مقدرته التى أظهرها فى إتمام ذلك هى السبب فى تسميته بالسفاح . وأول ما فعله أنه طارد من استطاع أن يجدهم من بقية الأسرة الأموية وذبحهم ، وهرب عبد الرحمن أحد هؤلاء فذهب إلى أفريقية حيث حاول أن يجمع لنفسه طائفة من الأتباع دون جدوى ، فعبر البحر إلى أسبانيا ، حيث أنشأ لنفسه دولة فى عام ١٣٨ هـ ، فحكم هو وأبناؤه من بعده حتى عام ٤٢٢ هـ . وقد ادعى هؤلاء الأمويون الأسبان أنهم الحكام الشرعيون ، ولكنهم لم يدعوا أبدا ما ادعاه العلويون من القدسية .

أما أبو مسلم الذى بذل غاية جهده فى إنشاء الدولة العباسية (١) ، فقد أثار غيرة الخليفة ، وربما كان ذلك لسبب وجيه ؛ لأنه وجد أن السفاح لم يكد يرتقى العرش حتى أهمل الشيعة الذين أعانوه على رقيه ؛ وهكذا قتل أبو مسلم فى السنة الأولى من الحكم العباسى (٢) .

وكان سقوط الأمويين نهاية طغيان الأقلية العربية كما كانت حينئذ ، وأصبح الرجحان لكفة الفرس مدة قرن كامل ١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ،

---

(١) فى الأصل : الأموية .

(٢) « وكان قتله فى شعبان سنة ست وثلاثين ومائه ، وفيها كانت بيعة المنصور ، وهزيمة عبد الله بن على (المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٢١٩ ط. دار الرجاء .

فأعيد تنظيم الحكومة على النمط الفارسى ، وكان إنشاء منصب الوزير ، وجعله رأس الهيئة التنفيذية أثرا من آثار النفوذ الفارسى . وربما كان هذا اللقب هو نفس اللقب الفارسى القديم (Vi_chir) أى المراقب (انظر درمستاتر : دراسات إيرانية ج ١ ص٥٨ الملاحظه الثالثة) . وكان الوزير الأكبر قبل هذا يسمى كاتبا أو مشيرا ، ولم يكن أكثر من أحد خدم الخليفة ، ويعمل فى ضبط الرسائل ، أو فى النصح حين تتطلب المناسبة . وفى عام ١٣٥ من الهجرة بدأت الأسرة الفارسية النبيلة ـ أسرة البرامكة ـ تمد الدولة بالوزراء ، فضبط هؤلاء سياسة الخلافة حتى عام ١٨٩ هـ . ومنذ أيام المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) بدأ الفرس فى تدعيم غلبتهم ، ونشأت طائفة تعرف بالشعوبية (أى المضادين للعرب) ممن رأوا أن المسلمين الغرباء لم يكونوا مساويين للعرب وحسب ، بل إن العرب كانوا أمة نصف همجية ، وأنهم أدنى من غيرهم من جميع النواحى ، وأنهم أقل من الفرس والسريان والقبط . وانتجت هذه الطائفة كثيرا من الأدب الذى أثار الجدل ، لما فيه من المطاعن ضد العرب ، ولما يبدوا فيه من ازدراء هؤلاء المحدثى النعمة وكراهيتهم . وكان فخر العرب قائما بأنسابهم ، فاهتموا اهتماما كبيرا بحفظ هذه الأنساب خلال القرن الذى سبق ظهور الإسلام على الأقل . وبما أنهم لم يبدأوا — إلا فى ذلك الوقت فى حصر نسب الآباء كان الكثير من هذه الأنساب خرافيا صرفا حين يتصل بالأسلاف الذين كانوا قبل الإسلام . وكان العرب فى الحقيقة شعبا محدث النعمة لم يخرج إلا منذ قليل من غمار البربرية (انظر لامانص : مهد الإسلام ص ١١٧) . أما الفرس

وهم لم يكونوا أقل عناية بحفظ الأنساب ، لأن نظامهم الطبقى جعلهم يهتمون كثيرا بها ، فكانوا يفخرون بأنساب أكثر صحة ، وأوغل فى القدم . وسواء أكان الأمر متعلقا بالأدب أو بالعلم أو بالفقه الإسلامى أو بعلم التوحيد أو حتى بدراسة النحو العربى دراسة علمية فقد تفوق الفرس تفوقا سريعا على العرب ، حتى إننا لابد أن نحترس دائما ، فنشير إلى الفلسفة العربية ، والعلم العربى ، وهلم جرا فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا إلى فلسفة العرب وعلم العرب الخ ، ونذكر أنه بالرغم من أنها عبر عنها باللغة العربية — وهى الأداة العامة فى العالم الإسلامى — لم تكن من عمل العرب إلى فى حالات قليلة جدا ، وأن الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والنحاة والمتكلمين والفقهاء الذين كتبوا باللغة العربية . وإن سقوط الأمويين ، وإحلال الفرس محل العرب كان بدءا للعهد الذهبى للأدب العربى والبحث العربى . فالأدب القديم الذى كتب بيد العرب حين لم يكونوا متأثرين بمؤثرات أجنبية يتكون كله من شعر من إنشاء الشعراء المنقطعين للشعر ، والذين يتغنون بحياة الصحراء وحربها ، ويبكون على الأطلال ، ويفخرون بالقبيلة ، ويهجون العدو ، ويعتبر هذا نوعا خاصة ، وقد بلغ مستوى عاليا من السمو فى هذا الاتجاه . وهذا الشعر العربى القديم يعجبنا من جهات كثيرة : فهو يصب مشاهد الصحراء — وهى رائعة — ويسرى فيه تيار تحتى من الحزن الذى يعتبر صدى للصحراء . وله جانب انفعالى حقيق شديد الإقناع ، وله فى نفس الوقت حدود فى مجال موضوعاته التى تعنيه ، ولا شك أن الدراسة الدقيقة لهذا الشعر العربى القديم تمهيد

ضرورى لتذوق الصور الأدبية العربية الأخرى ، ومفرداتها ، وتراكيبها ، وقد اتجهت عناية كبيرة فى السنوات الأخيرة إلى هذه الناحية . وهذا الشعر العربى القديم الذى يظهر فيه أنه نتاج البيئة العربية — ولكنه ربما تأثر فى الجاهلية ببعض الاتصالات الخارجية غير المحددة ـ ينتهى بعد سقوط الدولة الأموية بقليل ، إلا فى أسبانيا ، حيث بقى تحت ظل المنفيين الهاربين من بنى أمية . ولكن هذا النوع من الشعر فى الحقيقة خارج عن مجال بحثنا الحاضر ، إلا أن نقول إن راوية فارسيا هو حماد بن سابور الراوية المتوفى حوالى ١٥٦ — ١٥٩ هـ هو الذى جمع ونشر القصائد العربية السبع القديمة المعروفة بالمعلقات ، فبدأ بذلك ما يمكن أن يسمى المستوى الكلاسيكى للشعر القديم والمفردات القديمة . فلما استولى العباسيون على مقاليد الخلافة ، انتهت قيادة العرب العقلية للمجتمع الإسلامى ، وانتقلت القيادة إلى أيدى الفرس .